



حطيت مدينة القدس بأكثر شعر المدائن قاطبة، نظراً إلى ما كانت عليه من قيمة تاريخية ومحورية في الحروب والصراعات في المنطقة، ومكانتها في الديانات السماوية، ولكنها لم تنل هذا الحيز منذ حطين إلا بعد نكبة 1948، ونكسة 1967، حيث اتجهت أفئدة الشعراء إليها، فجاء إنتاجهم غزيراً، من هنا لجأ الشعراء إلى الدين مصدراً هاماً وأساسياً في الشعر العربي المعاصر الذي كتب عن القدس، وشارك هؤلاء الشعراء المدينة محتنتها منذ بداياتها مدركين مكانتها الحضارية، ووعيمهم بأن نضالهم في سبيل تحريرها هو نضال من أجل تحرير الوطن العربي كله.

من هنا كانت القدس محل اهتمام الكثير من الشعراء الذين رسموا صوراً لواقع المدينة، تبرز معاني القداسة والطهارة حيناً، وتبين معاني الحزن والألم التي تحياها القدس في ظل الاحتلال حيناً آخر، كما عرض الشعراء صوراً لمعاناة أهل القدس، وكانت بعض القصائد تعرض لنا تاريخ المدينة العريق وحاضرها المؤلم، لتكشف لنا عن عجز الواقع العربي الراهن، وتقصيره تجاه القدس التي تئن تحت وطأة الاحتلال، وحسبنا القول أن ما فاضت به قرائح الشعراء ليس في جوهره إلا روح الأمة وسيفر نضالها.

القدس في الشعر العربي المعاصر

ورد ذكر مدينة القدس في القرن التاسع عشر على استحياء، وفي قصائد محدودة لدى بعض الشعراء العرب ما يدعو إلى القول إن قضية القدس لم تشكل محور ارتكاز في الحقبة التي بعد الحروب الصليبية، وقد ظل الأمر على ذلك الحال إلى أن سقطت المدينة مجدداً في أيدي الغزاة الجدد في الحرب العالمية الأولى، فعندما دخل الجنرال اللنبي القدس عام 1917 في أثناء الحرب العالمية الأولى قال: "الآن انتهت الحروب الصليبية"، وقد ظل الحال على ما هو عليه إلى أن سقطت المدينة في أيدي الصهاينة عام 1948.

ومنذ سقوط الشطر الشرقي لمدينة القدس عام 1967 لم يعرف العرب محنة أشد ضراوة من هذه المحنة التي أثارت مشاعر الأدباء والشعراء في مختلف بلاد العروبة والإسلام على مر الأيام، فخلفوا لنا تراثاً أدبياً ضخماً في أحداثه، يتسم في معظمه بصدق القول، وحرارة الأداء، وليس هذا غريباً لما تتميز به "زهرة المدائن" وأولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين، ملتقى الأنبياء، وبوابة الأرض إلى السماء.



وفي هذه الفترة طالعنا قصائد لعدد من الشعراء العرب، تصور الصراع الذي دار عن المدينة، فكان الشاعر المصري علي محمود طه، من الشعراء الذين تحدثوا عن القدس، فقال:

أعد لها الذابحون المدي	أخي إن في القدس اختاً لنا
لنحمي الكنيسة والمسجدا	أخي قم إلى قبلة المشرقين
يعانق في جيشه أحمدا	يسوع الشهيد على أرضها

وكذلك نجد الشاعر السوري عمر أبو ريشة قد تحدث عن القدس في قصيدته التي تحمل عنوان "عروس المجد"، وهي قصيدة ألقيت في الحفلة التذكارية التي أقيمت في مدينة حلب ابتهاجاً بجلاء الفرنسيين عن سوريا، وتعرض فيها الشاعر لذكر القدس، إذ يقول:

لم تلامسها دنابى عقرب؟	أين في القدس ضلوع غضة
وقفه المرتجف المضطرب	وقف التاريخ في محرابها

ثم يقول في موضع آخر من القصيدة ذاتها:

يا رؤى عيسى على جفن النبي	يا روابي القدس، يا مجلى السنأ
سهلة الخيل ووهج القضب!	دون عليك في الرحب المدي

ومضى الشعراء العرب يخاطبون المسلمين والمسيحيين، مثيرين فيهم المشاعر الدينية، مذكرين بمقدساتهم في القدس، وكثيراً ما كان يقرن ذكر المسيح بذكر الرسول، وكنيسة القيامة بالمسجد الأقصى، ودقات الأجراس بأصوات المؤذنين.

ويصور زاهر الألمعي الذل والهوان اللذين يخيمان على القدس ومقدساتها، والكون لا يسمع، ولا يرى، ولا يتكلم، فيرسل صرخة إلى كل من يهمه أمر القدس ومقدساتها، من الغيارى على الدين والحرمت، فيقول:



يا ثالثَ الحرمين إنَّ العهدَ في
لُهي عليكِ وللسياسةِ مكرهاً
ويشيدُ أبناءُ اليهودِ بغيرهم
أقداسُ أقداسِ الجدودِ تعنتاً
والمسجدُ الأقصى يُخضبُ بالدماءِ
أعناقنا قد صارَ عهداً أكبراً
أتباعُ في سوقِ الطغاةِ وتشتري؟
فوقَ الربوعِ الطاهراتِ معسكراً
ومساجدِ التقوى تهانُ وتزُدري؟
والكونُ كلُّ الكونِ أعمى لا يرى؟

ويتساءل بدوي الجبل: هل درت أمته العربية التي يرمز لها بعدن بما حل بمسجدها الأقصى، ومسرى البراق، وكنيسة المهدي، ويكرر التساؤل باستحضار الشخصيات التاريخية التي لها علاقة بمعارك المسلمين والعرب الخالدة، يقول من قصيدة عنوانها "من وحي الهزيمة":

هل درتِ عدنُ أن مسجدها الأقصى
أين مسرى البراق والقدس
لم يرتل قرآنُ أحمدَ فيه
هل درى جعفرُ فرفاً جناحاً
ناجتِ المسجدَ الطهورَ وحنّت
أين روما؟ وجلَّ حبرُ بروما
صلبَ الروحِ مرتينِ الطواغيتُ
يا نذلَ الإسلامِ والقدسُ نهبُ
لا تشقُّ الجيوبُ في محنةِ القدس
مكانٌ من أهله مهجورُ
والمهديُّ وبيتُ مقدسٍ معمورُ؟
ويزارُ المبكى ويتلى الزبورُ
ه إلى المسجدِ الحزينِ يطيرُ؟
سدرةُ المنتهى وظلُّ طهورُ
مهديُّ عيسى يشكو ويشكو البخورُ
جراحُ كما يصوغُ العبيرُ
هتكت أرضه فأين الغيورُ؟
ولكنها تشقُّ الصدورُ

وتهز القدس مشاعر الشاعر المصري علي محمود طه الذي ترك كرنكه وجندوله، وهب يدعو لنجدة القدس في قصيدته الشهيرة "أنشودة الجهاد في يوم فلسطين"، والتي يقول فيها:

أخي جاوزَ الظالمونَ المدى
أنتركهمُ يغصبونَ العروبةَ
أخي إنَّ في القدسِ أختاً لنا
أخي قمُ إلى قبلةِ المشرقينِ
فحقَّ الجهادُ وحقَّ الضدُ
مجدُ الأبوةِ والسؤددِ
أعدُّ لها الذابحونَ المدى
لنحمي الكنيسةَ والمسجدا



وفي إحدى قصائده يدعو الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي نفسه وأمه إلى حمل هم التحرير، ويستحثها للعمل له من دون تمييز بين ديانات، ويخاطب فيها اليهود بقوله:

فلا تحسبوها لكم موطناً	فلم تك يوماً لكم موطناً
وليس الذي نبتغيه محلاً	وليس الذي رمتُم ممكناً
وإما أبيتُم فأوصيكم	بأن تحمّلوا معكم أكفنا
فإننا سنجعل من أرضها	لنا وطناً ولكم مدفناً

وهناك قصائد كثيرة تناولت حدثاً ما في القدس، كالإسراء والمعراج، وذكرى المولد النبوي، وأعياد الميلاد المجيد، أو موقعة ما كحطين واليرموك وغير ذلك، وتعد قصيدة "زهرة المدائن" للأخوين عاصي ومنصور رحباني التي غنتها فيروز، وكان لها صدى كبير في الشارع العربي، من أكثر القصائد التي قيلت في القدس قرباً إلى الوجدان العربي، والتي جاء فيها:

لأجلِكِ يا مدينة الصلاة أصلي
لأجلِكِ يا بهية المساكن، يا زهرة المدائن، يا قدس، يا قدس، يا قدس
يا مدينة الصلاة، أصلي
عيوننا إليك ترحل كل يوم، تجول في أروقة المعابد
تعانق الكنائس القديمة، وتمسح الحزن عن المساجد
يا ليلة الإسراء يا رب من مرؤا إلى السماء

ويبدو أن قصيدة زهرة المدائن للأخوين الرحباني كانت رداً على سيرورة القصيدة العبرية المغناة: "أورشليم من ذهب" JERUSALEM of GOLD للشاعر اليهودي (نعومي شيمر)، وللنص علاقة بالديانة اليهودية والموروث اليهودي في التوراة وشعائر اليهود في الزواج، ورؤية اليهود للقدس، ومكانتها في نفوسهم، فهم يعنون بالقدس من ذهب: (تاج الزواج)، أي إكليل الزواج الذي يوضع على رأس العروس عند اليهود، وقد ربط الشاعر بين سور القدس إكليل الزواج



المصنوع من الذهب على سبيل الاستعارة.

وجاءت قصيدة "القدس" لنزار قباني على غرار قصيدة "زهرة المدائن" للأخوين الرحباني من حيث اللغة الشعرية، والإحساس بالمكان، والبحث عن الخلاص، واللجوء إلى الرموز الدينية لتصوير المأساة، وقد برع الشاعر في نقل الأحاسيس والمشاعر، ووصف كل ماله علاقة بالقدس مكاناً له خصوصيته، تاريخياً ودينياً، وسياسياً، وحضارياً، يقول فيها:

بكيثُ حَتَّى انتهتِ الدموعُ
صَلَّيْتُ حَتَّى ذابتِ الشموعُ
ركعتُ حَتَّى ملَّني الركوعُ
سألتُ عن محمدٍ فيك، وعن يسوعُ
يا قدسُ، يا مدينةً تفوحُ أنبياءُها أقصرَ الدروبِ بينَ الأرضِ والسماءِ
يا قدسُ يا مدينةَ الأحرانِ
يا دمعَةً كبيرةً تجولُ في الأجفانِ
مَنْ يوقفُ العدوانِ
عليكِ يا لؤلؤةَ الأديانِ! يا قدسُ يا مدينتي
يا قدسُ يا حبيبتي

توظيف التراث ومعاينة المستقبل

نظر الشعراء إلى القدس بكونها المدينة الحلم والرمز، والمعادل الموضوعي والهوية كفكرة الوطن والدين، الذي يترامى بظلاله على كل شيء.

وقد وظف خليل حاوي التراث الأسطوري في شعره توظيفاً ناجحاً، دل على عمق الرؤية المستقبلية، والاستيعاب النقدي للماضي في عمل فني مكتمل، يتجاوز التعبير عما هو كائن إلى معاينة المستقبل، لقد حمل هم القدس صليباً،



فكتب بعد هزيمة حزيران 1967 قصيدة "الأيام الحزينة" التي جاءت صورة لذهول حزين أمام واقع مرعب، استعار الشاعر عنوان قصيدته من التراث المسيحي، حيث كانت العذراء مريم أم المسيح رمزاً للقدس والطهارة هي الأم الحزينة، التي عانت آلام موت ابنها، وإذا كانت العذراء الحزينة قد شيعت مسيحاً واحداً، فإن القدس الحزينة شيعت ألف مسيح ومسيح، ماتوا في أجواء قاحلة ومظلمة، توحى بموت أبدي، لا يتلوه انبعاث بحسب قول الشاعر.

ومن الملاحظ أن القصائد العربية التي عرضت لذكر القدس في هذه الحقبة قليلة، وأنها لم ترق إلى مستوى أهمية المدينة وقديستها، وفي هذا السياق يشير الباحث الفلسطيني الدكتور عاطف أبو حمادة إلى أن اهتمام الشعراء العرب المحدثين حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين بمدينة القدس لم يكن يوازي أهمية المدينة، فقلما نجد حضوراً لها في الشعر العربي، ليس بالقدر المطلوب، فهي ليست في أولوياتهم، ولعل ذلك راجع إلى تغلغل الفكر الشيوعي بين المثقفين العرب، ومنهم الشعراء، إذ أن المد اليساري أضعف الصبغة الدينية للمدينة المقدسة، ما جعل الشعراء العرب يعرضون لها من منطلق قومي في الأكثر الأعم، لكن الشاعر الفلسطيني أعاد التوازن إلى هذه المدينة، فركز على الوجهين الديني والقومي لها.

القدس في الشعر الفلسطيني

أما على صعيد الشعر الفلسطيني المعاصر فالأمر مختلف، إذ قلما نجد شاعراً لم يول اهتماماً للقدس، فالقدس لدى الشعراء الفلسطينيين رمز عزة وكرامة، وهي كذلك مركز الصراع العربي الصهيوني الذي يعد امتداداً للصراع التاريخي الذي شهدته المدينة على مر العصور.

وقد حاول الكثير من الشعراء إضاءة المعنى الديني للقدس، ومنهم الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود يخاطب الأمير سعود منبهاً إلى الخطر الذي يحيط بالقدس ومسجدها الأقصى فيقول:

ضُمَّتْ عَلَى الشُّكُوى المَريرةَ أضلَعُهُ
أَمْ جُنْتُ مِنْ قَبْلِ الضِّياعِ تودَعُهُ؟

يا ذا الأميرِ أَمَامَ عَيْنِكَ شاعرٌ
المسجدُ الأقصى أجنْتُ تزورهُ



ويقول شاعر فلسطين إبراهيم طوقان:

تُبَّتْ البُرَاقُ بِهِنَّ وَالإِسْرَاءُ

تَلِكَ الخَوَارِقُ إِنْ طَلِبْتَ أدلَّةً

وهو ما يؤكدّه الشاعر أحمد دحبور في قوله:

أنت مهدي، صخرتي

ميلادُ إسرائي

فإذا الليلُ تهادى

خرَجَ الحارسُ منْ خاصِرَةِ الصخرةِ

والتقتْ على المهديِ ونادي

يايبوسُ

أورشليمُ

إبلياءُ

قدسَ الأقداسِ، قداسَ الضياءِ

وعند قراءتنا للشعر الفلسطيني الذي قيل في القدس نرصد إشارات كثيرة إلى قضايا اجتماعية جديدة كالاستيطان، والتميز العنصري، والحصار، والهجرة، وهي من القضايا الاجتماعية التي برزت في السياق الاحتلالي للمدينة، وتأثر بها الشعراء، فبرزت في أشعارهم بوضوح، فها هو الشاعر أحمد فرح عقيلان يشير إلى العنصرية الصهيونية فيقول:

أقداسنا ويدوسُ جبهةً يعرب
يا ضبيعةَ الإسلامِ في مسرى النبي

حتَّى غدا الكلبُ الحقييرُ يجوسُ في
والمسجدُ الأقصى يصيحُ دخانهُ



أما اغتراب الإنسان عن مدينته فيعبر عنه محمود درويش قائلاً:

أنا لا أنا في حضرة المعراج
قلك قتلتي . . ونسيك مثلك أن أموت

ويؤكد درويش هذا الشعور بالغرابة عندما قال:
حنيني إليك . . اغترابٌ ولُقياء . . مَنفى !

فقد أصبحت القدس غريبة عن أهلها، فهم يحنون إليها، لأنهم يشعرون بالبعد عنها، وهم على ترابها، لأن كل شيء فيها أصبح غريباً بعد الاحتلال.

ويمكن النظر إلى القدس على أنها أحد المراكز الهامة للحضارة البشرية، فهي مدينة موعلة في القدم، تعاقبت عليها حضارات وإمبراطوريات متعددة، أضف إلى ذلك أنها كانت مهبطاً للديانات السماوية.

وهو ما شكل نسيجاً حضارياً متناعماً، طغى عليه الطابع العربي الإسلامي، وزركشته بألوانها الديانات والقوميات الأخرى، وهو ما أنتج حضارة مميزة، امتزج فيها الروحي بالمادي، والعلمي بالفلسفي، والشرقي بالغربي، من هنا فإن الحديث عن الوجه الحضاري إنما يؤكد الانتماء العربي الإسلامي لهذه المدينة، ويشير إلى التعايش الديني من جهة والصراع الوجودي السياسي من جهة أخرى، وهي قضايا كان لها حضور واضح في الشعر الفلسطيني المعاصر.

ويجسد الشاعر محمود درويش هذا التعايش بين الأديان المختلفة، فيقول:

في القدس، أعني داخلَ السورِ القديمِ،
أسيرٌ من زمنٍ إلى زمنٍ بلا دُكرى
تُصوّبني، فإن الأنبياءَ هنا يفتسيمونُ
تاريخَ المقدس . . ، يَصْعَدونَ إلى السماء



ويرجعون أقلَّ إجاباً وحرناً، فالمحبة،
والسلامُ مَقْدَسَانِ وقادمانِ إلى المدينة

ويزخر الشعر الفلسطيني عموماً بالإشارات الإنسانية التي تفتح على قضايا الإنسان ومشكلاته وهموم أهل القدس وأحزانهم، وكذلك في تطلعاتهم نحو الحرية، فها هو الشاعر عبد اللطيف عقل يقول:

عاشقُ القدسِ ليس يحسبُ يوماً
إنَّ أتاها أقاتلاً أم قتيلاً؟

آخِ يا قدسُ أنهككُ المواويلُ
وأودتْ بروجكُ الأشعائرُ

وربما يكون ذلك ما دفع الشاعرة سامية الخليلي إلى القول:

أتلو صلاةً بعضِ العابرينِ إليها
المتسرِّبين دونَ تصریحِ زياره

...

دونَ حُجَّةِ العلاجِ
وختم تأشيرةِ المهاجرِ
يصلِّي على عتبةِ قنصليته

ويبقى الشعار الذي رفعه إبراهيم طوقان في وقت مبكر شعاراً لكل فلسطيني يردد معه:

لنا البُرَاقُ والحرْمُ لنا الجمى، لنا العَلَمُ
أرواحنا، أموالنا فدى البُرَاقِ والحرْمِ

القدس في مدونة الشعر العربي المعاصر



الكاتب: أوس يعقوب